أظهرت الدراسات الأدبية في الحقبة الأخيرة اهتماما ملحوظا بشعراء العمر القصير. وتناول النقاد والمحللون ابداعاتهم وحيواتهم بالدرس والاستقصاء مما لا مزيد عليه حتى أحالوهم ظاهرة أدبية فريدة في أدبنا العربي - ولا شك أنهم كذلك - الا ان الأمر لابد الا يقتصر على هؤلاء المبدعين قصار العمر. بل إن صورتهم لكي تكتمل لابد أن تقابل بوجهها الآخر. وأعني صورة المعمرين من الشعراء. ولابد من دراسة أشعارهم خاصة تلك التي كتبتها أناملهم المرتعشة في سنوات عمرهم الأخيرة تحت وطأة الأيام الثقيلة. فهاتان الصورتان يجب أن تقترنا في إطار واحد. هذه بألوانها الزاهية. وتلك التي اشترات حوافها.

المعمرون من الشعراء

حسن شهاب الدين - مصر

وبينما نستشعر في قصائد قصار العمر شفافيتهم وإحساسهم بقرب النهاية علينا أيضا أن نستشعر عذابات الوحدة والانفراد في عالم متغير صاخب بالنسبة لصوت صيفه الشيب وأوهنته الشيخوخة. وكما نتذكر ملرفة ابن العبد، وتاج الملوك الأيوبي، وعبد الحليم المصري، وصالح الشرنوبي، وأبا القاسم الشابي، وغيرهم ممن بلغ ذروة الإبداع ثم انطفأ سريعا كالشهب الخابية. علينا أيضا أن نتذكر لبيد بن ربيعة القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذي الناس: كيف لبيد؟!(١)

وزهير بن أبي سلمى الذي سئم «تكاليف الحياة»، والنابغة الجعدي، وأسامة بن منقذ. ثم الشاعر القروي وأخيرا الجواهري وغيرهم ممن أحس بخُطا الأيام تمر على قلبه بطيئة وثقيلة بلونها الرمادي الذي لا يكاد يتغير حتى قال عبد الله بن سبيع الحميري:

اراني كلما هزمت يوما
اتى بعده بيوم جديد

يعود شبابه في كل فجر

ويأبى لي شبابي أن يعودا[2]

أو ترى أحدهم يدبُّ على عصاه قائلاً وهو مرداس ابن سبيح:

فإني قد كبرتُ ورقَّ عظمي

وأسلمني لدى الدهر الهناتا[3]

حتى إنهم ليرون الموت خيرًا من حياة العجز مثل زهير بن جناب إذ يقول:

فالموت خير للفتى

فليهلكنْ وبه بقية

من أن يرى لهديه ولـ

ـدانّ المقامة بالعشية[4]

أو كما قال حاطب بن مالك مقارنًا بين حياة مثله من الفانين وغيره من الشباب المتوثب الطامح:

وماذا ترجى من حياة ذليلة

تمرها بين الغطارفة الملد

ولَلموتُ خيرٌ لامرئ من حياته

يدبُّ دبيبًا في المحلة كالقرد[5]

الجواهري

وهذه الأبيات وغيرها ما هي إلا صدى أنفسهم المضادة بالألم المبدع.

وهذا البحث يطمح إلى قراءة أشعار المعمرين ووضع عناوين كبرى لأغراض أشعارهم التي كتبتها أنامل الشيخوخة المرتعشة، لأنّ لهذه الفئة من الشعراء سمات عامة في قصائدهم التي تضجّ بالشكوى من طول الزمن وتصف أحوال أصحابها -وكأنهم اتفقوا فيما بينهم- على اختلاف عصورهم وأماكنهم -على أغراض بعينها لابد أن تتناولها أقلامهم حين يزورها هاجس الشعر في عزلتها المتطوية. وأول هذه الأغراض:

◁◁ الملل من طول الحياة.

زهير بن أبي سلمى

وهذا هو العنوان الأكبر الذي نسج حوله المعمرون من الشعراء معظم أشعارهم يتساوى في ذلك قديمهم أو حديثهم وهذه هي السمة الأكثر شيوعًا في قصائدهم وهي التي دفعت جعفر بن قرط العامري لأن يصرخ قائلاً: «هل مشترٍ أبيعه حياتي». وذلك حين رأى لداته من مسقط الشمس إلى الفرات ينامون في كنف قبورهم وقد أسندوا ظهورهم إلى الأبدية إلا إلهام، وقد صرح محمد مهدي الجواهري بملله من الحياة فقال:

لقد أسرى بي الأجلُ

وطول مسيرة مللُ[6]

ويتساءل أسامة بن منقذ:

فالام أشقى بالبقا

* وكم تعذبني الحياة[7]

ولعل هذا البيت كافٍ للدلالة على أن البقاء بالنسبة لأمثاله من المعمرين شقاء، كما أن الحياة ما هي إلا عذاب خاصة بعد أن فارقه الأحبة والملذات، وهو المعنى الذي كرره كثيرًا في شعره كقوله:

وأصبحت وحشة الغبراء دونهم

من بعد أنس بهم والشمل مجتمعُ

وعشت منفردًا منهم، وأقسم ما

يكاد منفرد بالعيش ينتفعُ[8]

واعتاد المعمرون من الشعراء حين يشكون من طول الحياة على تعداد سنوات عمرهم كقول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم[9]

وقول الشاعر الفروي:

قدماي غارقتان في التسعين[١٠]

وكذلك قول مجمع بن هلال:

مضت مئة من مولدي فنضيتها

وعشرٌ وخمس بعد ذاك وأربعُ[١١]

ويقول لبيد:

أليس في مئة عاشها رجل

وفي تكامل عشر بعدها عمَرُ[١٢]

الفروي

وبهذا السأم من طول الحياة وتعداد السنين، وبالثالثة وهي الانفراد وذهاب الرفاق يتشكل لنا الملمح الأول الذي يدور حوله شعر المعمرين وهو المعنى الذي لخصه الفروي بقوله:

ذهب الرفاق جميعهم من دوني

لم يبق منهم شاعر يرثيني

صاد أؤمل بعد من عيش وها

قدماي غارقتان في التسعين[١٣]

استدعاء الماضي

ويشكل التحسر على الشباب واستدعاء ذكريات الماضي بما فيه، ثاني الملامح التي صبغ بها المعمرون من الشعراء قصائدهم، وما يذكر هذا الملمح إلا ويتبادر إلى الذهن قول أبي العتاهية:

ألا ليت الشباب يعود يوما

فأخبره بما فعل المشيب[١٤]

وهي الصرخة التي ما زال صداها يتردد عبر كل جيل، وقد تناول أسامة بن منقذ بعض ذكريات شبابه في إحدى مقطوعاته، وكان الداعي لذكرها هو ما عرض له من ألم في رجله بسبب كبر سنه فمنعه من الركوب، فقال هذه الأبيات الدامعة:

رجلاي والسبعون قد أوهنت

قواي عن سعي إلى الحرب

وكنتُ إن ثوّب داعي الوغى

لبيته بالطعن والضرب

أشق بالسيف دجا نقعها

شق الدياجي مرسل الشهب

أنازل الأقران بردينهم

من قبل ضربي هامهم رغبُ

فلم تدع مني الليالي سوى

صبري على اللأواء والخطب[١٥]

ولاشك أن فارسنا كابن منقذ كان أكثر من غيره تأثرًا بعجزه عن النهوض والركوب وهو الذي كان لا يشق له غبار، ولذلك كرر هذا المعنى في قوله:

لم تترك السبعون في إهابها

مني سوى ما لا عليه معول

كم قد شهدتُ من الحروب فلبتني

في بعضها من قبل نكسي أقتل

وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى

في الحرب يشهد لي بذاك المنصل[١٦]

وليس ذكريات الماضي كلها تحسرات وأهات، بل قد يشعر هذا القلب الخفوق ببعض الحنين إلى مرح الشباب، بل والتصابي، كما شعر الجواهري حين قال:

يا للتصابي، ألا ينفك يجذبني

على الثمانين جذب الشوق بالعطل[١٧]

أما البهاء زهير فهو الإمام المقتدى به في هذا الشأن فقد أقسم ألا يترك لسنوات عمره الطويلة هذا القلب اللعوب فقال:

قالوا: كبرت عن الصبا

وفطمت نفسك الناحية

ونعم كبرتُ وإنما

تلك الشمائل باقية

ويميل بي نحو الصبا
فثنيت رقيق الحاشية
فيه من الطرب القديم
م بقية في الزاوية[١٠]

المشيب

وَصْفُ ما حلّ بالرأس من ذلك الضيف غير المحتشم هو ثالث الملامح التي نلمسها في أشعار المعمرين، وهذه أيضًا سمة عامة لدى الشعراء حتى الشباب منهم، فقد تناولوا بحسرة قضية المشيب، فمنهم من رضي ورأى فيه وقارًا وإضاءة للعقل، ومنهم من سخط، وكلاهما سجل لنا هذه التأملات الباكية، فيقول علي بن جبلة:

شباب كان لم يكن
وشيب كان لم يزل[١١]

ثم يرسم صورة لهذا الشيب الذي كان بمثابة أمل طواه أجل غير راحم:

كان جور الصبا
عن المشيب حين اشتعل
زهاه أمل موثق
اطل عليه أجل

أما منصور النمري فيضيف تأثير المشيب في العيون فيقول:

ما واجه الشيب من عين وإن رمقت
إلا لها نبوة عنه ومرتدع[١٢]

وهو المعنى الذي ذكره المتنبي -وإن لم يكن من المعمرين- إلا أنه يصف شدة تأثير الشيب عليه فيقول:

ضيف ألم برأسي غير محتشم
والسيف أحسن فعلاً منه بالقلم[١٣]

وبعض الشعراء أحس بالشيب سُمًّا إلا أنه بغير ألم فيقول:

هو السم إلا أنه غير مؤلم
ولم أر مثل الشيب سمًا بلا ألم[١٤]

وكلُّ الشعراء يرون المشيب نذيرًا بالموت، فعديّ بن زيد يقول:

وابيضاض السواد من نذر الشـ
ـيب وهل مثله لحي نذير[١٥]

وقال أبو العتاهية:

ألا يا موت لم أر منك بدًّا
أتيت وما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي
كما هجم المشيبُ على شبابي[١٦]

وهناك من الشعراء من رحب بالمشيب كدعبل الخزاعي الذي قال فيه:

أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه
سمة الغضيب وجلية المتحرج[١٧]

إلا أننا نعتقد أنه قول غير صادق، فشاعرنا نفسه هو الذي قال:

ضحك المشيبُ برأسه فبكى[١٨].

وإنك لتلمح الصدق في بكائه على الشباب الراحل، إذن فترحيبه بالشيب لا يخدعنا عن حقيقة نفسه، وكان الأحق به أن يعترف كما اعترف الشريف المرتضى في قوله:

لا مرحباً بالشيب أظلم باطني
لما تجللني وأغسق ظاهري[١٩]

محمد حسن فقي

شكوى الضعف

أما وصف آيات الكبر وطلب المساعدة فهو الملمح الرابع الذي يميز شعر المعمرين، فمحمد حسن فقي يتخيل نفسه طفلا باكيًا بل مثلا سائرًا فيقول:

ارفقي بي في النهو معذرة
مشتي إليك فإنني طفل

قد كدت أذهب في الورى مثلا
لو كان ينفع عندهم مثل[١٩]

ويلخص المستوغر بن ربيعة شكواه في الأبيات الآتية حينما سأله معاوية -رضي الله عنه-: كيف تجدك يا مستوغر؟ فقال:

سلني أنبئك بآيات الكبر
نوم العشاء وسمار بالسحر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر
وقلة الطعم إذا الزاد حضر
والناس يبلون كما تبلى الشجر[٢٠]

وإذا كان حميد بن ثور يقول:

أرى بصري قد رابني بعد صحة[٢١]

وعوف بن محلّم يقول:

إن الثمانين - وبلغتها
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[٢٢]

فالبارودي لا يكتفي باختلال البصر وثقل السمع بل يصف الكثير من شكواه المرّة قائلا:

أخلق الشيب جدتي وكساني
خلعة منه رثة الجلباب
ولوى قصر حاجبي على
عيني حتى أظل كالمرتاب
لا أرى الشيء حين يسنح إلا
كخيال كانتني في ضباب
وإذا ما دعيت حرت كأني
أسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتني
ونية لا تقالها أعصابي[٢٣]

والبيت التالي يُجمل ما انتهى إليه شاعرنا:

لم تدع صولة الحوادث مني
غير أشلاء هفة في ثياب

ولأسامة بن منقذ غرام خاص بوصف عصاه التي يتكئ عليها فيقول:

حملت ثقلي بعد ما شبت العصا
فتحملته تحمل المستكاره
ما ادعى ثقلي ولكن ثقل ما
أبقى الشباب علي من أوزاره[٢٤]

وأسامة يلتمس العذر لعصاه إن عجزت عن حمله ويجد مبررا لذلك في قوله:

إن ضعفت عن حمل ثقلي رجلي
ورأيتني عثارها في السهل
فلتعصا عندي غدر المبالي
إن عجزت أو ضعفت عن حملي[٢٥]

وكرر المعنى ذاته في قوله:

وإذا رجلي خانتني فلا
لوم عندي للعصا في أن تخونا[٢٦]

البارودي

وتاريخنا الأدبي يشكر لابن منقذ وضعه لكتاب (العصا) وقد جمع فيه طائفة صالحة من الأخبار والأشعار المتعلقة بالعصا.

طلب المساعدة:

ويرتبط بهذا الملمح في الشعر العربي لدى المعمرين ملمح آخر هو جزء منه وهو طلب المساعدة والاحتياج لمن يمدّ يد العون لهذا الشيخ الفاني، وأوّل ما يصل إلى أسماعنا قول ربيع بن ضبع الفزاري بل استغاثته:

إذا كان الشتاء فادفئوني
فإن الشيخ يهدمه الشتاء[٢٧]

وذلك في كلمته التي يخاطب فيها قومه وأولها:

ألا أبلغ بني بني ربيع
فأشراز البنين لكم فداء
بأني قد كبرت ودق عظمي
فلا تشمتكم بي النساء

ولابد أن نتذكر طلب زهير بن مرحة وقد عاش مئة وسبعين سنة:

كبرتُ وامستْ عظامي رماداً

وما تأمل العين إلا رقاداً

أقول لأهلي لا تطعموا

وهاتوا فراشاً وطيئاً وزاداً[٢٠]

المعمرون ومواجهة الموت

وهكذا تمضي قافلة العمر بطيئة بهؤلاء الشعراء، ولا يتبقى لهم إلا مواجهة الموت وقد استطاعت آمالهم المرتعشة أن تضيف لونا عميقا في شعرنا العربي وإن كان رماديًا وقاتمًا..

فالجواهري مثلا يرى أن الموت المجهول سبب لتنغيص حياته فيقول:

ينغص العيش أن الموت يدركه

فنحن من ذين بين النابو الظفر[٢١]

أمّا زهير بن جناب فهو في شوق للموت ليريحه من هذه الحياة الثقيلة الوطأة فيقول:

لقد عمرت حتى لا أبالي

احتفى في صباحي أم مسائي

وخلق لمن أنت منتان عام

عليه أن يمل من الثواء[٢٢]

وكذلك عمرو سليل أبي الجعد الذي يرى الموت مخلصا فيقول:

فإن أمت فالموت لي خيرة

من قبل أن أهذي ولا أدري[٢٣]

ولسيف بن وهب أبيات رائعة يصف فيها استعداده لمواجهة الموت ويقول:

ألا أنتِ عاجلا داهبْ

فلا تحسبوا أنه كاذبْ

لبست شبابي فأفنيته

وأدركني القدرُ الغالبْ

وما أشجى وأصدق اعترافه:

قس بن ساعدة

وأدركني القدرُ الغالبْ[٢٤]

وبمعادلة منطقية بسيطة يرى قسّ بن ساعدة الإياديّ أنه لابد لاحقٌ بالماضين فيقول:

فما رأيتُ مواردا

للموت ليس لها مصادرْ

أيقنتُ أني لا محا

لة حيثُ صار القومُ صائرْ[٢٥]

وهكذا كان المعمرون من الشعراء على استعداد دائم للرحيل حاملين معهم ذكريات صبا لاعب، وشباب غالب، وسنوات مشيب خطاها واهنة وأحمالها ثقيلة. تاركين لنا قصائد ومقطوعات هي من أصدق ما في ديوان شعرنا العربي، حتى إنّ بعضهم أراد لحظة الموت أن يترك لأبنائه بعض الوصايا وكأنّ الشعر يأبى أن يفارقه حتى لحظة النهاية. وهي النهاية التي طال انتظارها من هؤلاء الشعراء المعمرين وكلهم يردد مع أبي زبيد الطائيّ:

أتاني رسولُ الموت يا مرحبا به

لأتيه وسوف والله أفعلُ[٢٦]

الهوامش

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص٣٩. حققه وقدم له د.إحسان عباس- سلسلة التراث العربي-الكويت١٩٦٢.

(٢) كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم للسجستاني. ص٢١. عني بتصحيحه وتعليق حواشيه السيد محمد أمين

الخانجي، وقرأه على الشنقيطي، ط١، ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، مطبعة السعادة.

(٣) المصدر السابق، ص٣٥.

(٤) الشعراء الجاهليون الأوائل، ص١٠٩، د.عادل الفريجات، دار المشرق، ط١، ١٩٩٤م.

(٥) كتاب المعمرين، ص٢٩.

(٦) ديوان الجواهري الأعمال الكاملة، ص٨٥٥، قصيدة بريد الغربة، دار الحرية، بغداد، ط٢، ٢٠٠٠م.

(٧) ديوان الأمير الفارس أسامة بن منقذ، ص٢٩٥، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

(٨) المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٩) ديوان زهير بن أبي سُلمى، ص٧٠، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/١٩٩٦م.

(١٠) الشاعر الشروي، الأعمال الكاملة، الشعر، ص١٥٧، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، جمعه وبوبه وضبطه وقدم له (مكتب التدقيق اللغوي).

(١١) كتاب المعمرين، ص٣٢.

(١٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص٢٥٠.

(١٣) الشاعر الشروي، الأعمال الكاملة، الشعر، ص١٥٦، ١٥٧.

(١٤) ديوان أبي العتاهية، ص٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٥) ديوان الأمير الفارس أسامة بن منقذ، ص٢١٠، وفي البيت الرابع إقواء.

(١٦) المصدر السابق، ص٢٧١.

(١٧) مختارات الجواهري، ج٢، ص١٢٩، قصيدة الغضب الخلاق، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(١٨) ديوان البهاء زهير، ص٢٩٥، شرح وتحقيق محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، سلسلة ذخائر العرب٥٢، دار المعارف، القاهرة.

(١٩) شعر علي بن جبلة، ص١٩، جمعه وحققه وقدم له د.حسين عطوان، ط٢، سلسلة ذخائر العرب١٨، دار المعارف، القاهرة.

(٢٠) كتاب الأمالي للقالي، ج١ ص٢١٢، تقديم د.محمد محمطفى أبي الشوارب، سلسلة الذخائر العدد١٨٣، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب الثانية١٣٤٤هـ/١٩٢٦م.

(٢١) ديوان المتنبي، ص٣٦، المكتبة الثقافية، بيروت.

(٢٢) البيت منسوب لأعرابي في عدة مصادر، وانظر مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قبش، ص٢٥٦، ط٢، ١٤٢٣هـ، ١٩٨٣م، دار الرشيد.

(٢٣) الحماسة لأبي عبيدة البحتري، ص٢٢١، وضع حواشيه محمد رضوان ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢٤) ديوان أبي العتاهية، ص٢٣.

(٢٥) ديوان دعبل بن علي الخزاعي، ص٥٣، جمعه وحققه د.محمد يوسف نجم، دار الثقافة - بيروت.

(٢٦) المصدر السابق، ص١١٧.

(٢٧) ديوان الشريف المرتضى، القسم الثاني، ص٧٣، حققه ورتب قوافيه وفسر ألفاظه رشيد الصفار المحامي، دار إحياء الكتب العربية (الحلبي)، ١٩٥٨.

(٢٨) قضية الزمن في الشعر العربي، ص١٠٥، د.فاطمة محجوب، مكتبة الدراسات الأدبية٨٠، دار المعارف، القاهرة.

(٢٩) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٣، ص٥٣-٥٤، تحقيق أحمد أمين وصحبه، القاهرة، ١٩٤٩، وتعزوها بعض المصادر للمرزبان بن الهيثم.

(٣٠) الحماسة لأبي عبيدة البحتري، ص١١٧.

(٣١) طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص١٨٨، تحقيق عبد الستار فرج، سلسلة ذخائر العرب٤٠، دار المعارف، القاهرة.

(٣٢) ديوان محمود سامي باشا البارودي، ص٥٥، شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم، دار الجيل، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

(٣٣) ديوان الأمير الفارس أسامة بن منقذ، ص٢١٠.

(٣٤) المصدر السابق، ص٢٧٢.

(٣٥) المصدر السابق، ص٢٧٤.

(٣٦) الحماسة لأبي عبيدة البحتري، ص٢٢٨.

(٣٧) كتاب المعمرين، ص٦٤.

(٣٨) ديوان الجواهري الأعمال الكاملة، ص٨٩٠.

(٣٩) الشعراء الجاهليون الأوائل، ص٣٩٥.

(٤٠) كتاب المعمرين، ص٣١.

(٤١) المصدر السابق، ص٤١.

(٤٢) البيان والتبيين للجاحظ، ج١، ص٣٠٩، بتحقيق وشرح عبد السلام هارون/مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٧/١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

(٤٣) كتاب المعمرين، ص٨٦.